فن المقامة جدل النثر والشعر

The Art of Maqama: Controversy in Prose and Poetry

فؤاد فياض كايد شتيات[1] علي زعل محمود الخمايسة[2] طارق إبراهيم محمود الزيادات[3]

Fouad Fayyad Kaede Shtiat[1] Ali Zaal Mahmood Al-khamayseh[2] Tareq ibraheem Mahmoud al-zyadat[3]

DOI: 10.15849/ZJJHSS.221130.03

الملخص

تناولَ الباحثون جنسَ المقامة الأدبيَّ الّذي نشأ على يدِ بديعِ الزّمانِ الهَمَذانيّ، وتطور على يدِ الحريريّ وغيرهما، وناقشوا خصائصَ هذا الجنس، وظروفَ نشْأتِهِ ومُزاحَمَتِهِ لوظيفةِ الشِّعر، وسعي مؤلّفيه عبر العصور إلى تعرية البنى الاجتماعية والثقافية في العصر العبّاسي عن طريق بناء مجموعة من الحكايات الساخرة المتذَرِّعَة بالكُديَة الّتي تنسج خُيوطَها وفقَ ثنائيّة راوٍ وبطل، وكيف تحوَّل هذا الجنس عبر العصور حتّى وصل إلى عصر النَّهضة العربيَّة، وكيف أثّر في قصص الشُّطَّار الإسبانيّ، والمقامات العِبريَّة. ويستخدم البحثُ المنهجَ الوصفيَّ في الوصولِ إلى بيانِ جدليّة العلاقة بين النَّثْر والشِّعر في جنس المقامة الأدبيّة.

الكلمات المفتاحية: مقامة، نثر عباسي، الهمذاني، الحريري.

Abstract

The researcher dealt with the literary genre of al-Maqama, which was originated at Badi' al-Zaman al-Hamadani and evolved at the hands of al-Hariri and others. The researcher discussed the characteristics of this genre, the conditions of its emergence, its competition with the function of poetry, and the efforts of its authors across the ages to expose the social and cultural structure of the Abbasid era through building a group of satirical stories based on Kiddiya (begging). These satirical stories weave their strings through the duality of the narrator and the protagonist. The researcher also investigated the development of the genre through the ages to the modern Arabic Renaissance and how it affected the Picaresque novel and the Hebrew Maqama. The research uses the descriptive method to clarify the dialectic of the relationship between prose and poetry in al-Maqama as a literary genre.

keywords: al-Maqama, Abbasid Prose, al-Hamadani, al-Hariri

[1]الإسراء – الآداب – اللغة العربية وآدابها – أدب

[2]الإسراء – الآداب – اللغة العربية وآدابها – لغة ونحو

[3]الإسراء – الآداب – اللغة العربية وآدابها – لغة ونحو

* للمراسلة: Fouad.Shtiat@iu.edu.jo

تاريخ استلام البحث: 2022/04/19

تاريخ قبول البحث: 2022/10/04

[1]Isra University, Arts, Arabic Language, Literature

[2]Isra University, Arts, Arabic Language, Language and Syntax

[3]Isra University, Arts, Arabic Language, Language and Syntax

*** Corresponding author: Fouad.Shtiat@iu.edu.jo**

Received: 19/04/2022

Accepted: 04/10/2022

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

المقدمة

المقامة جنس أدبي نشأ وترعرع في ثنايا الثقافة العربية، وهو غصن نما في دوحة الأخبار والحكايات العربية والفنون الشعبية النثرية والشعرية، وقد طال الجدل في ظروف نشأته، غير أنَّ الثابت هو أنَّه فرع من فروع الثقافة العربية الإسلامية وتراثها الإخباريّ والسرديّ، عالج جانبًا مهمًّا من جوانب تلك الثقافة، واعتمد نسج حكايات ساخرة وناقدة لمجموعة من المهمشين في المجتمع العباسي وسعيهم لتوظيف الثقافة اللغوية والحيلة والمسرحة الشخصية والتمويه والكُدية للحصول على المال والطعام والشراب.

ومع أنّ جنس المقامة الأدبي تناوله العديد من الباحثين من زواياه المختلفة، غير أنّ هذا الفن يحتاج إلى مزيد من القراءات لإثرائه؛ لذلك يأتي هذا البحث ضمن ذلك المسعى، ويستخدم المنهج الوصفي التحليلي في قراءة أبنية المقامة ونشأتها وتطورها ودورها في تعرية الأبنية الاجتماعية عن طريق الحكاية أو الوعظ أو رواية الأخبار أو فضح بؤر التوتر أو تمرير بعض من الحكم والأشعار واللغة المسجوعة الموارية.

وقد تناولت العديد من الدراسات موضوع المقامة، ومنها: "حجاجية السرد في مقامات الحريري" لعمر أبو هنية ومحمد الشريدة، 2018م، وقد درس الحجاج في خطاب السرد عند الحريري. "بلاغة المقامة" لمحمد أحمد أنقار، 2016م، ويدرس السمات البلاغية التي تتسم بها مقامات بديع الزمان الهمذاني مثل الإقناع والاستجداء والسخرية ببعديها التصويري والنقدي، والمفارقة والتمويه ودراسة الحدث بتفاصيله المتعددة. "خطاب المفارقة وجدلية الجنس الأدبي في مقامات الهمذاني" لأحمد العرود، 2016م، ويتناول تجنيس المقامة الهمذانية، وقد توصل إلى أنها جنس أدبي له شروطه، وقد ناقش هذا الجنس في إطار نظرية الأجناس الأدبية. "غواية السرد وقراءة في المقامة البغدادية للحريري" لحسن بن أحمد النعمي، 2001م، ودرس مظاهر النص والغواية التي يمارسها على متلقيه الخارجي ومتلقيه الداخلي، واتخذ من المقامة البغدادية للحريري نموذجًا لدراسة غواية النص الداخلية.

وقد قسم البحث إلى تمهيد حول دلالة مصطلح مقامة وتطوره ومفهومه، ثم مناقشة لميزات جنس المقامة الأدبي، ثم أصول جنس المقامة، ثم تأثير جنس المقامة في بعض المقامات الأخرى غير العربية.

تمهيد

تعود لفظة المقامة لغويًّا إلى المقام والمجلس والنادي يجتمع فيه القوم، يقول زهير بن أبي سلمى:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهم *** وأنديةٍ ينتابها القولُ والفعلُ[1]، وقد أشار ثعلب في شرحه لبيت زهير إلى المقامة فقال: "المقامات: المجالس... وإنما سميت المقامات؛ لأنّ الرجل كان يقوم في المجلس، فيحضُّ على الخير ويصلح بين الناس، قال عباس بن مرداس السلمي:

فأيّي ما وأيّك كانَ شرًّا *** فسيقَ إلى المقامةِ لا يراها

ويقال: هو مقامة القوم، إذا كان يقوم فيتكلم في الحض على المعروف"[2]. غير أن دلالة الكلمة تطورت لتشير إلى ما يقال في هذه المجالس والأندية من محاورات ومواعظ فقيل مقامات الخطباء ومجالس القصاص، وهو مجاز

---

[1] ثعلب، أبو العباس، شرح شعر زهيرابن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة هارون الرشيد، دمشق، ط3، 2008م، ص93. وينظر: نشأة المقامة في الأدب العربي، ص9–12. فقد ذكر المؤلف جميع الأشعار التي ذكرت المقامة بمعنى مكان الاجتماع والنادي والمجلس.

[2] المصدر السابق: ص94.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

باعتبار المجاورة والاتصال كتسمية السحاب سماء في قوله تعالى: "وأنزلنا من السماءِ ماءً طهورًا" (الفرقان: 48)، وتشير الكلمة كذلك إلى مجلس السادة والحديث والموعظة والكدية.

ويرى القلقشندي أنّ المقامات "جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة اسم للمجلس والجماعة من الناس، وسُمِّيت الأحدوثة من الكلام مقامة، كأنّها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من النّاس لسماعها"[1].

وقد عقد مجموعة من المصنفين أبوابًا في كتبهم سمّوها مقامات، كما فعل ابن قتيبة في عيون الأخبار إذ عنون أحد أبواب كتابه بـ"مقامات الزُّهَّاد عند الخلفاء والملوك"[2] ثم تطورت دلالة الكلمة في القرن الرابع الهجري وما بعده لتشير إلى "الدعوة التي يوجهها المتعفّون وأهل الكدية إلى الناس ممن يتوسمون فيهم البر والإحسان"[3].

وقيل المقامة: "قصة قصيرة بطلها نموذج إنساني مكد ومتسول لها راوٍ أو تقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونًا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية"[4]، وربما انطبق هذا التعريف على مقامات بديع الزمان بوصفها النموذج المثال لكنها لا تنطبق على بعض المقامات كمقامات السيوطي مثلًا الذي "جعل مقاماته مناظرة بين شيئين أو عدة أشياء تتبارز وتتفاضل فيما بينها فيتحدث كل عن نفسه مبينا فضله على غيره كما فعل مع الرياحين السبع والمواقيت السبع"[5]، ويشير (بلاشير) إلى أنّ كلمة مقامة تعني: "المحكيات النثرية المسجوعة التي تشخص راويا وشخصية شطارية".

وهي كذلك فن أدبي قديم يقوم على الحكاية أو الأقصوصة، ولها أبطال معينون وراوٍ محدَّد، تقوم على الكدية والحيلة والخداع في تحصيل الطعام والمال. والمقامة خطاب وعظي ناجح يمارسه مكد يمتلك أدوات إقناعية تفوق الواعظ في المسجد أو في المجلس الديني، ذلك أنّ الواعظ يستخدم القصة والحكاية الدينية للتأثير على المتلقي أمّا المكدي فيؤثر في مستمعيه بمجموعة من الأدوات الخطابية إلى جانب مظهره الذي يدعم خطاب التسوّل المتمحور حول أنّه ضحية نوائب الدهر وتقلباته، وأنّ من لا يسانده في محنته لا يأمن غدر الدهر، لذا يقرن العطاء بالإفلات من تقلب الدهر ويذكي روحا من الإيجابية على المعطي. ويبرز ذلك في العديد من مقامات بديع الزمان والحريري.

---

[1] القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج14، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1919م، ص110.

[2] ابن قيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، ص333. ويشير الباب إلى محاورات الزهاد مع الخلفاء ووعظهم.

[3] الجراح، هاني عباس، المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية، الرضوان للنشر، عمان، 2014م، ص11. والكُدية: هي شدة الدهر، وتشير إلى الصلابة في الأرض التي تجعل من يحفر بها يرتد عن متابعة فعله، أو البرد الذي يصيب الزرع فيرده في الأرض، وكدت الأرض أبطأ نبتها، وفي قوله تعالى: "فأعطى قليلا وأكدى" فأكدى: أمسك عن العطية، والكدية تتجاوز الاستجداء إلى الاحتيال من أجل المال بشتى الأدوات كاستغلال غفلة الجمهور أو غرائز الرحمة والرقة فيهم، وقد تستدعي التطواف في البلاد وممارسة أنماط من استجداء الناس باستخدام التخفي وبلاغة اللغة والأدب والشعر أحيانا، ينظر: المحروقي، سيف محمد سعيد، نماذج إنسانية في السرد العربي القديم، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010م، ص99-100.

[4] عوض، يوسف نور، فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، 1979م، ص8، وينظر: الجراح، هاني عباس، المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية، ص12.

[5] جامعة القدس، فنون النثر العربي القديم، ص270.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وقيل: إنها "حكايات قصيرة موضوعة على لسان رجل خيالي تنتهي بعبرة أو موعظة أو نكتة، والمراد بها في الأكثر التفنن بالإنشاء وتضمينه الأمثال والحكم"[1] وهي "جنس أدبي نثري موضوعها يتغير حسب الظروف المحيطة بها، حيث إنها تتكئ وتستند إلى التصورات المعيّنة مع الزمن المعين، وتساق بأسلوب لغوي عال"[2].

والمقامة: "شكل قصصي يتأنق صاحبه في انتخاب ألفاظه، ومعادلات سجعاته، وتوشيته بالبديع، حتى يجعلها بستانًا حاشدًا بمختلف الأساليب المنمَّقة المحصورة بين السجعات"[3] "إنّها نوع يستوعب مختلف فنون القول والكتابة حيث تجد فيها الشعر والرجز والألغاز والأحاجي والأمثال والنوادر والوصف والمدح والجد والهزل والمُلَح والطُرَف والرسائل والخطب والمواعظ والأضاحيك...، كما لو كانت خطابًا جامعًا لمختلف فنون القول والكتابة المتداولة في الأدب العربي"[4].

وتتصف بنية المقامة عند الهمذاني بأنّها "استندت إلى ركنين مهمين: أولهما: راوٍ ينهض بمهمة إخبارية محددة، وثانيهما: بطل ينجز مهمة واضحة، ومن خلاصة تفاعل الراوي والبطل يتكون متن حكائي قوامه الرواية والحكاية والعلاقة التي تربطهما"[5]، وقد جذَّر الحريري ما بدأه الهمذاني وكرّسه في مقاماته، وقد أقرَّ بذلك في مقدمة مقاماته، وأشاد غير دارس بتكريس الحريري لبنية المقامة الهمذانية في مقاماته، ومنهم ابن الصيقل الجزري (ت701هـ) في قوله "أوحد زمانه، وأرشد مكانه... وما كان إلا تابعًا مقلدًا له"[6] وكذلك قلده اليازجي الذي "بالغ في تقليده في الموضوع، وصورة الأشخاص وتصرفاتهم، كما نهج على صياغة المقامات الحريرية في التزام الأسلوب المسجع"[7].

و"المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص بخلاف المكاتبات فإنّها بحر لا ساحل له"[8]، وثمة خلط ظاهر بين الرسالة والمقامة، تبدو في عمل ابن شهيد "رسالة التوابع والزوابع" الذي استلهم من المقامة الإبليسية رسالته، وحملت سمتين من سمات المقامة: السجع، ووجود رفيق للمؤلف وهو الجني. وقد استخدم ابن شرف مصطلح أحاديث ورسائل في بعض أعماله التي "تحوي حكيما يبدي آراءه في الشعراء القدامى والمعاصرين بأسلوب قريب من أسلوب الهمذاني في مقاماته ولكن دون سلطة راو"[9].

---

[1] زيدان، جورجي، تاريخ آداب العربية، ص700.

[2] إسماث، نور الحائيلية بنت محمد، العنبر عبد الله نايف. التحليل النصّي في نماذج من مقامات الزمخشري في ضوء معيار الاتساق، الجامعة الأردنية، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد، 45، عدد 1، 2018م، ص47.

[3] رزق، شريف، الأشكال النثر شعرية في الأدب العربي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2017م، ص90.

[4] كاظم، نادر، المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات بديع الزمان الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م، ص77.

[5] إبراهيم، عبد الله، النثر العربي القديم بحث في البنية السردية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2002م، ص223.

[6] المصدر السابق: ص223.

[7] المصدر السابق: ص224.

[8] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص111.

[9] موجز دائرة المعارف الإسلامية، ص9575.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وفي الأندلس أطلقت المقامة على "نص أدبي يتميز بالإيقاع والقافية، سواء تضمن شعرًا أم لا، ومهما يكن موضوعه، وكثيرا ما كانت هذه النصوص تثقل بالمحسنات البديعية لدرجة الحذلقة، مع استعراض للمعرفة، مما يجعلها أقرب إلى الطلاسم"[1].

أجناسية المقامة

يُعدّ بديع الزمان الهمذاني المبدع الحقيقي لفن المقامة الأدبي، فقد استطاع أن يجعل المقامة متميزةً وقارةً ضمن ميزات محددة إلى حد ما، وجاء من بعده مجموعة من المؤلفين واتبعوا نهجه في تشكيل مقاماتهم، وهذا لا ينفي وجود إرهاصات سبقته في هذا المجال، وقد اتخذت المقامة على يد بديع الزمان شكلا ثابتا أو شبه ثابت، واصطبغت بميزات فنية تميزها عن غيرها من الأجناس الأدبية، وهي عديدة منها: أنّها **انبنت على السفر**، فمقامات بديع الزمان معمورة بحركة التجوال لشخصين، ففيها (أبو الفتح الإسكندري وعيسى بن هشام) يتحركان في إطار جغرافيا البلاد الإسلامية، لكنهما في سفرهما لا ينتظران عودة إلى الديار ولا حنينًا إلى وطن، بل يذرعان الأمكنة ويفتشان في ثنياتها دون أن يعمر أنفسهما بلد المنشأ.

أما احتفال المقامة بالسفر فينسجم مع النسق الثقافي العام للحياة العربية المعاصرة لتشكيلها، فقد كان السفر والرحلة جزءًا من الحياة وأصلا من أصول تحصيل المعرفة الدينية واللغوية والأدبية، وقد أشار الهمذاني في المقامة المكفوفية إلى السفر وغاياته فقال: "كنت أجتاز في بعض الأهواز وقصاراي لفظة شرودا أصيدها، وكلمة بليغة أستزيدها"[2] كما أنّ بطل المقامات كائن متلبس بالشعر والأدب "رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه، والبلاغة يأمرها فتطيعه"[3] وقد عمدت المقامات إلى جعل بطلها محتكر القول بكل مظاهره "يجهر مستمعوه بافتتانهم أمامه، وإذا حدث أن جادلوه، فليس ذلك إلا لحثه على أن يتكلم أكثر"[4].

ومن الميزات التي ترتبط بالسفر وتحفل بها المقامة **العيان في نقل المعلومة** على لسان بطلها والاحتفال بالراوي والرواية المسندة، وذلك انسجامًا مع ثقافة العصر في القرن الرابع الهجري، الذي يعلي من شأن التراث المروي عيانًا، ففي "أغلب المقامات يشارك الراوي في الفعل باعتباره شخصية، إذًا فهو يروي ما عاينه وعايشه"[5] وتلك قمة موثوقية المعرفة، وأحيانًا يكون راويًا فحسب كما في المقامة البشرية، ذلك أنّ حوادث حكاية المقامة تتعلق بصعلوك عاش في العصر الجاهلي، وأحيانًا يروي ما شاهده عيانًا كما في المقامة الغيلانية، فيروي عن راوية يدعى عصمة بن بدر الفزاري، لكن الفاصل الزمني بين عصمة والخبر –وهو مناقضة شعرية بين الفرزدق وذي الرمة– بعيدة، مما يجعل العيان غير مسنود بالمنطق "فالمقامة في مراسيم افتتاحها تشارك قطعًا في ذلك الخطاب

---

[1] موجز دائرة المعارف الإسلامية، ص9575.

[2] الهمذاني، بديع الزمان، المقامات، ص78.

[3] المصدر السابق: ص14–16.

[4] كليطو، عبد الفتاح، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط2، 2001م، ص16.

[5] المصدر السابق: ص17.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

الإسنادي، شأنها في ذلك شأن الحديث"[1] والراوي في العادة يشكل الحكاية "والحكاية لا تأخذ طريقها إلى الوجود إلا من خلال الراوي الذي يمثل الطرف الأول في عملية الإرسال"[2].

أما المزية الثالثة للمقامة **فالحكاية المحبوكة القائمة على الكدية وشخصية المكدي** بكل خصائصها الثقافية. ومن تلك الخصائص التغير المستمر والتبدل الدائم واتخاذ ثياب الممثل المسرحي فمرَّة يكون تاجرًا ومرة يكون حاكمًا وأخرى إمامًا ومرَّة أديبًا، ومرَّة غنيًّا وأخرى فقيرًا وأحيانًا محاربًا وأخرى مطاردًا، وقد يكون نصرانيًّا وأخرى مسلمًا مهتديًا ، ومرّة شابًّا وأخرى عجوزًا فانيًا. هذا التقلب شبيه بتقلب الدهر وتقلب الأيام في ليلها ونهارها، ومع كل التبدل والتغير الذي يصيب بطل المقامة والأقنعة التي يرتديها تنتهي بتعرف الراوي عيسى بن هشام على البطل أبي الفتح، ويثير ذلك التلاقي الدهشة ويعبّر عنه في نهاية المقامة بالقول: "فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري"[3].

إن شخصية المكدي في المقامة تفتح أبوابا عديدة أمام الباحث عن منشأ هذه الشخصية وعلاقة تلك النشأة بالأنساق الثقافية العامة للمجتمع في القرن الرابع الهجري، وعلاقة شخصية المكدي بالمثقف سواء أكان واعظًا أم أديبًا أم شاعرًا أم إنسانًا معوزًا دفعته الحياة للكدية.

يتخفى المكدي بثياب متعددة ويتقمَّص شخصيات متباينة، وينجح في تجاوز الانكشاف ويحقق كثيرا ما يريده، ولعل الشخصية الأولى التي جسدت جانب الكدية في الثقافة العربية وتحولت إلى الكتب شخصية خالد بن يزيد الذي يرد ذكره في بخلاء الجاحظ[4]، وشخصية خالد تتقاطع مع شخصية أبي الفتح في التبدّل والتغيّر، والتخفي في أثواب متعددة، واستخدام أدوات لغوية لهجية متباينة. ويشير الجاحظ إلى الشخصية النمطيّة للمكدين، فيقول: "وهو الذي يقف على الميت يسأل في كفنه، ويقف على طريق مكة على الحمار الميت والبعير الميت فيدّعي أنه كان له، ويزعم أنّه أحصر، وقد تعلّم لغة الخراسانية واليمانية والإفريقية، وتعرّف تلك المدن والسكك والرجال، وهو متى شاء كان إفريقيًّا، ومتى شاء كان من أهل فرغانة، ومتى شاء كان من أي مخاليف اليمن شاء"[5] كما أنّ

---

[1] المصدر السابق: ص17.

[2] علواني، أحمد محمد، المروي عليه في الحكاية التراثية العربية، داراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 45، العدد 4، 2018، ص82.

[3] الهمذاني، بديع الزمان، المقامات، ص28.

[4] الجاحظ، البخلاء، تحقيق الحاجري، ص46.

[5] المصدر السابق: ص53. وينظر: الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر، حكاية أبي القاسم البغدادي، أعاد طبعه مكتبة المثنى، بغداد، عن طبعة هيدلبرج 1902م، ص1، فقد أشار إلى شخصية الحكاية وتلونه وتغيره واستشهد بقول الجاحظ آنف الذكر، وقال: "إنك تجده يحاكي الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه وأعضائه، لا تكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله فكان هذا الحاكي جمع ما هو مفترق فيهم وحصر جميع طرف حكايات العميان في أعمى واحد، ولقد كان فلان يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب إلا ينهق، وقد تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك كتحركه لصوت هذا الحاكي، وكأنه جمع جميع النغم التي تناسب نهيق الحمير فجعلها نهيق حمار واحد فارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحمير" ص2.

حكاية أبي القاسم البغدادي تتضمن شذرات من المقامة الساسانية[1] والمقامة المضيرية[2] وتتقاطع في بعض زواياها مع بطل المقامة المكدي في إطارها العام.

فالمكدي يختار أسلوب التخفي والتقنع مما يدخله في العالم التخييلي، فكما ذكر الأزدي شخصية الحاكية (الممثل) وقدرته على التمثيل والتقليد، يختار المكدي التخفي الصفيق الذي لا يمكن اختراقه، ويحتاط أن يستشعر أحد أنّه غير مندمج كليًّا في المظهر الذي يتظاهر به، ومن ذلك أنّ أبا الفتح يتسوَّل متظاهرا بأنّه أعمى مكفوف، لا أحد يكتشف الحيلة، وتغرورق عينا عيسى بن هشام بالدموع رقة له، ولا يكشف للراوي المندهش أنّه ليس أعمى إلا بعيدا عن الناس[3].

ومع أن بعض المقامات تخرج في موضوعها من الكدية إلى اللصوصية، لكنّ الغاية النهائية للمقامة ولخطاطة السرد فيها هي الكدية والحصول على المال، ذلك أنّ المقامة حين تروى سردًا في المجالس تحتاج إلى مستمعين مدققين، واستخدام حيل اللصوص فيها لا يخرج عن إطار خطاب الكدية العامة الذي يعمر المقامات. لقد أفرغ الهمذاني عصارة ذهنه وجهده الأدبي وبلاغة قوله ليصوغ مقاماته، واختار الكدية أداة موضوعية لما فيها من قدرة على خرق المعتاد ونقده وتحليل الواقع ونقده. لقد جعل الهمذاني من مقاماته أداة أدبية ولوّنها بعدة تلوينات لغوية وشحنها بمجموعة من الموروثات النصّية، واستخدم السجع والصنعة اللفظية ليقرب المسافة بين النثر والشعر، فهل سعى إلى إحلال المقامة محل الشعر؟ وهل استخدم الكدية موضوعا يستفز عقل المتلقي ليكسب تعاطفه مع الشكل النثري الجديد؟ وهل استخدمت المقامة الكدية لتوازي موضوع المدح في الشعر؟

وإنّ كانت النظرة العامة للكدية نظرة سلبية، لكن المقامات تصورها على أنها ممارسة حياتية مهنية يتبعها مجموعة من البشر وهم فخورون بها مسرورن بممارستها، ويبرز ذلك في البخلاء في وصية خالد بن يزيد لابنه، حين يقول له: "إنّي قد تركت لك ما تأكله إن حفظته، وما لا تأكله إن ضيعته، ولما ورثتك من العرف الصالح، وأشهدتك من صواب التدبير، وعودتك عيش المقتصدين... فإن سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عندك"[4]

---

[1] كـان أهـل الكديـة يطوفـون علـى البلـدان، ويقولـون نحـن مـن بنـي ساسـان، فينتسـبون إلـى ملـوكهم، ثـم يتـذللون فـي السـؤال، ويـذكرون تلاعـب الـدهر وانقـلاب حـال الملـوك إلـى السـؤال، فيقـع الإشـفاق علـيهم، والميـل بـالرزق لهـم، حتـى شـعر النـاس بمكـرهم وخـديعتهم، وقيـل إن ساسـان اسـم رجـل معـين، وهـو أول مـن أسـس الكديـة فنسـبوا إليـه، كمـا أن الطفيلـي منسـوب إلـى رجـل اسـمه طفيـل وهـو أول مـن تطفـل. الشريشـي، أبـو العبـاس أحمـد بـن عبـد المـؤمن القيسـي، شـرح مقامـات الحريـري، ج1، تحقيـق: محمـد أبـو الفضـل إبـراهيم، المكتبـة العصـرية، بيـروت، ص79. "وكـان بنـو ساسـان فـي المشـرق مـدعاة عجـب، وأصـحاب طـرب، وأربـاب أدب، عرفـت بعـض أخبـارهم الطريفـة، وأحـوالهم العجيبـة، وأغـرب مـا كـان لـديهم احتيالـه للـرزق، وأسـاليبهم فـي جمـع المـال، ولقـد يمـر بهـولاء دون أن يؤبـه لهـم، فمـا وقفـوا موقـف سـؤال إلا وأظهـروا بعـض مـواهبهم فـي الشـعر والإنشـاد أو التحايـل، ولا اجتمعـوا إلـى مجلـس إلا أخـذوا منـه بعـض مـا يمكـن أن يؤخـذ مـن موعظـة أو حكمـة أو نـادرة أو لحـن، حتـى إذا تقلبـت بهـم الأيـام... رأيـتهم وقـد جمعـوا ثـروة فنيـة جيـدة مـن الغنـاء والأدب" ينظر: سلطان، جميل، فن القصة والمقامة، ص41.

[2] الأزدي، محمـد بـن أحمـد أبـو المطهـر، حكايـة أبـي القاسـم البغـدادي، ص92-94، ومـن ذلـك قولـه: "أريـد منـك رغيفـا يعلـو خوانـا نظيفا، أريد ملحما جريشا أريد خلا ثقيفا، أريد ماء بثلج يغشي إناء طريفا" وينظر: كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ص40.

[3] كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ص45.

[4] الجاحظ، البخلاء، تحقيق: الحاجري، ص47.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وكذلك في وصية أبي زيد السروجي لابنه في المقامة الساسانية، حين دنت وفاته، قال لابنه: "ولم أرَ ما هو بارد المغنم، لذيذ المطعم، وافي المكسب، صافي المشرب، إلا الحرفة التي وضع ساسان أساساتها، ونوّع أجناسها"[1].

ومن ميزات المقامة المتذرعة بالكدية **السرد**، فـ"من مقامة لأخرى تتأكد خطاطة سردية، منوال ينسج أثوابا ذات ألوان متغيرة، لكنّها مصنوعة من المادة نفسها والمقاسات نفسها، إن دوام الطبقة العميقة تحت قناع السطح هو علاقة تماثل مع التصور الهمذاني للتاريخ، تصور لا يرى في ركام الحقب التاريخية من معنى سوى تكرار الفساد أي عودة المثل"[2].

"وفي مثل هذا المناخ السردي بزغت المقامة نوعًا جديدًا، ذوّبت فيهما كثيرا من كشوفات العصر في مجال السرد، وفي مقدمة ذلك اعتمادها على الراوية الجوال الذي يلازم بطلًا رحالة، وبوساطة المناقلة الشفاهية بينهما، للواقع الذي عاشاه، يتكوّن متن المقامة الذي من ميزاته الأساسية أنه يتضمن حكاية محبوكة حبكًا فنيًّا متماسكًا"[3].

ومن ميزات المقامة أنها عمدت إلى **الجمع بين النثر والشعر**، وإعلاء الشعريّة في النص النثري وجعله نصا جامعا "تجاوزت في فضاءاتها الشعرية الموزونة والمنثورة، محققة حضورًا مزدوجًا للشعر منظومًا ومحلولًا"[4].

وقد أصابت الحياة الأدبية في القرن الرابع الهجري وما بعده جملة من التغييرات ومنها مهمة الشعر، فقد تراجعت مهمة الشعر في الحياة لصالح النثر، وغدا كاتب الرسالة يتقلّد مناصب خطيرة في المجتمع، وغدت الكتابة مادة الثراء وأساس امتلاك السلطة، وأضحى الكاتب هو الحاجب الذي يملك مفتاح السماح للشاعر لامتلاك الحياة عن طريق الوصول إلى القائد أو الأمير أو القاضي الخليفة أيضا.

يروي الأنصاري: "سمعت ابن ثوابة الكاتب يقول: لو تصفحنا ما صار إلى أصحاب النثر من كتاب البلاغة، والخطباء الذين ذبوا عن الدولة، وتكلّموا في صنوف أحداثها وفنون ما جرى الليل والنهار به، مما فتق به الرتق، ورتق به الفتق، وأصلح به الفاسد، ولمّ به الشعث... وأبطل به الباطل، لكان يوفي على كل ما صار إلى جميع من قال الشعر ولاك القصيد... ومتى كانت الحاجة للشعراء كالحاجة للوزراء، ومتى قام وزير لشاعر للخدمة أو التكرمة؟ بل لا ترى شاعرًا إلا قائمًا بين يدي خليفة أو وزير... ممدود الكف يستعطف طالبًا ويسترحم سائلًا"[5].

وما المقامة إلا جزء من ذلك النثر المتنمّر الذي أقصى الشعر وسعى ليحل محله وغدا يحصل من الكسب أضعاف ما يحصله الشاعر من صنعته، وغدت المقامة تنافس القصيدة، وشخصيتا المقامة تجولان العالم وهما في تطواف مستمر، فعيسى بن هشام طالب الأدب، وأبو الفتح منتجه ومنتفع به، أبو الفتح دائب البحث عن الكريم والمعطاء، إنّه يقايض بفصاحته هبات الراوي والجمهور، وعطايا سيف الدولة وخلف. مقامات عديدة مخصصة للمدح، لم تعد القصيدة القالب الوحيد للمدح، بل صار السجع ينافس القصيدة جدّيًّا، لقد شحن الهمذاني رسائله بأغراض كانت مقتصرة على الشعر، انصهر المديح في قوالب متعددة منها القصيدة والرسالة والمقامة، وأضحى

---

[1] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج5، ص327.

[2] كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ص55.

[3] إبراهيم، عبد الله، النثر العربي القديم، ص218.

[4] رزوق، الأشكال النثر شعرية، ص90.

[5] التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، ج2، ص252-253.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

الشاعر يمدح ويمارس المدح بنفسه، أمّا المقامة فيمارس المدح فيها عن طريق شخصية خيالية ابتدعها البديع في إطار المحكي[1].

استوعبت المقامة مجموعة من الأجناس النثرية كاللغز والمأدبة والمناظرة والموازنة وغيرها، ولم تكتف بذلك بل استوعبت العديد من الأغراض الشعرية التقليدية، لقد غدت مقامات البديع ومن بعده الحريري تشكّل مجموعًا هجينًا تتعاقب فيه الأبيات وفقر النثر، بل غدت إطارًا للنثر والشعر، ولم يعد الشعر والنثر منفصلين بشكل واضح، لقد اندمجا في المقامات.

ولا تبتعد المقامة في لغتها وطرائق تعبيرها عن التحديث الذي طرأ على لغة الشعر، منذ تحديث الشعر العباسي وتطويره على يد أبي تمام ومن سار في ركبه ممن اتهموا بالإغراب في لغة الشعر عن طريق استخدام الاستعارة والألفاظ الإيحائية والمحسنات اللفظية والمعنوية، فقد تأثر النثر بالنسق الشعري وعمل على تضييق الحدود بينهما عن طريق الرسالة والمقامة، ولعل شعرية الكتابة المسجوعة التي استخدمها الشاعر هي ما دفعت الناثر إلى استخدام أشكال أسلوبية تشبه القافية تمثلت بالفواصل السجعية، مع أنّ لكلّ نوع طريقة تلقٍّ وإيقاع خاصة، غير أنّ ذلك "محكوم في مبدأ إرادة محو الحدود بين النثر والشعر"[2].

ومن المزايا الأخرى للمقامة أنّها أضحت نسيجًا متراصًّا، تتذرع بأسلوبها المكتنز **بخصائص شعرية إيقاعية،** وتتمحور في سردها حول الكدية، ونصّها منسوب إلى راوٍ عتيد، وصيغها السردية تخضع لتسلسل خطِّي ثابت لا يكاد يتغير من مقامة إلى أخرى.

كما تتميز **بحيوية المشهد وديناميةالحوار**، وبراعة بديع الزمان في رسم شخصيات مقاماته: إذ يلجأ إلى التصوير والتقرير والإخبار، كما أنّ الحبكة في مقاماته قائمة على المفاجأة وعنصر التشويق، وهي تشبه القصص الشعبي البسيط القائم على التسلسل الخطّي للأحداث. أمّا مكان المقامات فالمدن العباسية مثل: بغداد والبصرة والموصل، وزمانها القرن الرابع الهجري.

وتتميَّز نهايات الحكايات بأنه غالبا ما تلخصها **حكمة شعرية يقولها الراوي،** وتقوم كذلك على السجع وإيقاعه ويمتزج بالشعر أحيانا، والصنعة اللفظية والتزويق. **والبيان والبديع** اللفظي "هو أهم سمة أسلوبية واضحة في البناء الفني لتلك المقامات، فهي تحفل بوجود الاستعارات المبثوثة هنا وهناك، وكذلك الجناس والتلاعب اللفظي، أمّا السجع فلعله أظهر سمة فيها على الإطلاق"[3] ومنه في المقامة الحرزية: "وقعدت من الفلك بمثابة الهلك، ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل، غشينا سحابة تمد من الأمطار حبالًا، وتحدو من الغيم جبالًا، بريح يرسل الأمواج أزواجًا، والأمطار أفواجًا، وبقينا في يد الحين بين البحرين، لا نملك عدَّةً إلا الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء، ولا عصمة غير الرجاء... وفينا رجل لا يخضل جفنه، ولا تبتل عينه، رخي الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحه، فعجبنا والله كل العجب، وقلنا له: ما الذي أمنك العطب؟ فقال: حرز لا يغرق صاحبه"[4].

---

[1] ينظر كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ص67-69.

[2] المرجع السابق: ص75.

[3] مؤلفون، فنون النثر العربي القديم، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2007م، ص283.

[4] الهمذاني، المقامات، ص181-183.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وتعتمد المقامة على **الظرف والأسلوب الفكاهي والسخرية** أحيانا، **وتمتلئ نصوص المقامة بنصوص أخرى** كالآيات الكريمة، والأمثال وقد وردت بعض الأمثال متلاحقة كما في المقامة الصيمرية حين قال: "وكنت عندهم أعقل من عبد الله بن عباس، وأظرف من أبي نواس، وأسخى من حاتم، وأشجع من عمرو، وأبلغ من سحبان وائل، وأدهى من قصير، وأشعر من جرير"[1] ويعمر الشعر كذلك المقامات، فعلى سبيل المثال تحوي مقامات الهمذاني 350 بيتا من الشعر بعضها من قول الهمذاني نفسه.

وتستخدم المقامة **غريب اللفظ** أحيانا لتمريرها للطلاب في حلقات الدرس، كما تحتفل نصوص المقامات بمجموعة من **مشاهير النثر** كالجاحظ، وتتناول نصوص المقامات العديد من الموضوعات منها الكدية والموعظة والوصف والرسالة وأدب الرحلات والحوار والمناظرة والأحاجي والألغاز، وتعلي المقامة من سلطة العقل واللغة وتود القول بأنَّ "سلطة العلم والدهاء والمكر لا تقل شأنا عن قوة السيف والمال، بل يسيطر العقل بحسن تصرفه على القوة والسلطة، فصاحب العقل يبقى على قيد الحياة بفضل نباهته"[2].

و**يتناص** بديع الزمان مع نفسه إذ تشترك بعض الجمل بين مقاماته ورسائله ومن ذلك قوله في المقامة النيسابورية: "إني أريد كعبة المحتاج لا كعبة الحُجّاج، ومشعر الكرم لا مشعر الحرم، وبيت السبي لا بيت الهدي، وقبلة الصّلات لا قبلة الصلاة، ومنى الضيف لا منى الخيف"[3] وفي رسائله: "أني لما وردت من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج، ومشعر الكرام لا مشعر الحرام، ومنى الضيف لا منى الخيف، وقبلة الصلات لا قبلة الصلاة، وجدت ندماء من نبات العام"[4]، وللمقامة راويان راوٍ مجهول وراوٍ معلوم ذكر اسمه. "إنَّ من يؤطر المقامة سرديًّا هو راوٍ مجهول، وداخل مستوى روايته، يظهر راو معلوم يقوم هو الآخر برواية أفعال البطل، وأحيانا بعد هذه السلسلة المتعاقبة من الرواية يقوم البطل برواية أفعاله كما في المقامة الكوفية للحريري حيث تنتهي سلسلة الرواة بأبي زيد السروجي، وهو يروي للحارث بن همام ما جرى له، وهنا ستظهر كما سيتضح ثلاثة مستويات من السرد"[5].

أصول فن المقامة

يعيد بعض الدارسين فنّ المقامة إلى ابن قتيبة، ففي "المقامات التي وضعها ابن قتيبة كان خطيب الجمع بدويًّا رَثّ الثياب، وإن كان عالي الفصاحة، وهو نفس الدور الذي يقوم به القاص أو القصاص أمام جمهور العامة، والذي اختلط فيما بعد بأعمال المكدين (الشحاذين الجوالين) وأعمال الصعاليك والدجالين"[6].

---

[1] المصدر السابق: ص399–413.

[2] السراحنة، فاطمة، البنية الحكائية في كتاب (النمر والثعلب) لسهل بن هارون، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 45، عدد 4، ملحق 1، 2018م، ص104.

[3] الهمذاني، المقامات، ص368–369. وقصد ببيت السبي بيت العطاء، وكذلك في قبلة الصلات أي المنح والهبات، وكذلك مكان إكرام الضيف لا مكان الحج.

[4] الهمذاني، بديع الزمان، رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، مطبعة الجوائب، الاستانة، 1298، ص68.

[5] إبراهيم، عبد الله، النثر العربي القديم، ص225–226.

[6] موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط1، 1998م، ص9573.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وهناك من يعتقد أنّ المقامة متأثرة بنماذج إغريقية، و يرى الحصري (ت413هـ) أنّ الهمذاني استفاد من أحاديث ابن دريد الأربعين وعارضها و"قد رأى ابن دريد أغرب بأربعين حديثًا، ذكر أنّه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره، على طبع عرب الجاهلية، بألفاظ حوشية، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة، لطيفة الأغراض والمقاصد، بديعة المصادر والموارد"[1]، وقد "وقف مناقلتها بين رجلين سمّى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر ويوقف منها على كلّ لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية وخص الآخر بالرواية"[2]، وقد أخذ زكي مبارك برأي الحصري فيما ذهب إليه.

ويبدو أنّ لفظ أربعمئة آت من تعدد الأجناس المستخدمة فيها، وفي سياق خطاب مقامات الإسكندري ومقامات الكدية، وهو نوع من المبالغة في افتخاره على الإتيان بأربعمئة صنف من الخطابات المتنوعة، وقد أشار إلى ذلك في مناظرته لأبي بكر الخوارزمي حين قال: "أربعمئة صنف في الترسل"[3].

ويرى عباس حسن أن تأثير أحاديث ابن دريد في مقامات الهمذاني اقتصر على الجانب اللغوي، ولم تكن تلك الأحاديث هي أصل الفن المقامي، ولم تكن ملهمة للهمذاني في مقاماته، وهو زعم مشكوك في صحته[4]، وقيل إن ابن فارس أثر في وضع المقامات، وذهب جرجي زيدان إلى أنّ ابن فارس هو المبتكر الحقيقي لفن المقامات الأدبية[5]. ويبدو أنّ الحريري قد تأثر بابن فارس في إحدى مقاماته وهي المقامة الطيبية، ومناط تأثره في المادة الغفل التي بنى عليها الحريري مقامته التعليميه المذكورة، واقتباسه كان من كتاب في الفقه لا من عمل أدبي، ولم يتأثر الهمذاني بابن فارس[6].

ولا يمكن إنكار عدد من المؤثرات الفنية في تشكيل المقامات عند البديع فهناك نماذج فنية متعددة استفاد منها بديع الزمان، وهو وليد هذا التراث ومنها مقامات الوعظ المبثوثة في كتب الأدب كعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكذلك أحاديث الأعراب وخطبهم وموضوعات تلك الأحاديث، والخطب وما فيها من سجع وكدية ووصف لضيق الحال والفقر والعوز. ولعل المتفحّص لما يرويه البيهقي عن أحد الأعراب يثبت ذلك حين قال: "رحم الله امرأ لم تمجّ أذنه كلامي، وقدّم لمعاده من سوء مقامي، فإن البلاد مجدبة، والحال مسغبة، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم، والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم، فرحم الله امرأ واسى بمير، أو دعا بخير، فقال رجل: ممن يا أعرابي؟ فقال: أخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، وطالب خير من رزق الله"[7].

ويقول مارون عبود: "إنّ خطة المقامات هي من عمل البديع، فلا لابن فارس ولا ابن دريد في صنعتها شيء، فالهمذاني هو الذي ألبسها هذا الطراز الموشّى، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام،

---

[1] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج1، ص24.

[2] إبراهيم، عبد الله. النثر العربي القديم، ص220.

[3] نادر، المقامات والتلقي، ص78.

[4] عباس، حسن، نشأة المقامة في الأدب العربي، دار المعارف، د.ت، ص35.

[5] المصدر السابق: ص39.

[6] المصدر السابق: ص40.

[7] البيهقي، إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، د.ت. ص588.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

فعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع"[1] فهي "بدعة أدبية تكاد من فرط تميّزها عن أنماط الكتابة المعهودة، تكون ناجمة عن غير أصل... وأنَّ صاحبها سوّاها على غير مثال، ونسجها على غير منوال"[2].

وهناك من يرى أنّ بديع الزمان الهمذاني استوحى مقاماته من أحاديث الجاحظ عن المتسولين والمكدين، فكتاب البخلاء تضمّن مجموعة من حيل اللصوص والمكدين وامتاز بالسخرية والهزل. وبعضهم يرى أنّ جذور المقامات تعود إلى الفن القصصي لعبدالله بن المقفع أو قصص عربشاه في كتابه "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"، وكذلك احتوى أدب "الفرج بعد الشدة" للتنوخي المعاصر للهمذاني على مجموعة من الشخوص مظهرهم رث لكنهم يملكون قدرات هائلة في الخطابة والحكمة ومهارات القول والاتصال. ويشار إلى أنّ فن المقامات "فنّ نشأ في جو عربي إسلامي خالص"[3].

ويقال إنّ الهمذاني كان يحكي مقاماته ارتجالًا وأنّه "كان يقول لأصحابه في آخر مجلسه: اقترحوا غرضا نبني عليه مقامة، فيقترحون ما شاءوا، فيملي عليهم المقامة ارتجالًا في الغرض الذي اقترحوه"[4].

لكن هناك من يقول: "إننا لا نملك عدا المقامة وقبل ظهورها شيئا يجوز لنا أن نسميه أدبًا قصصيًّا ألفه قصدًا أدباء معروفون على غرار ما نجده في الشعر، فلنا إذن أن نقول: إنّه لا وجود قبل المقامة لمحاولة إنشاء قصص للمتعة باعتبارها جنسًا أدبيًّا... فما يمكن أن يسمى الشكل الحقيقي الأول للقصة القصيرة في العربية إنّما هو المقامة"[5].

ومبتدع المقامة هو بديع الزمان الهمذاني (ت398هـ/1007م) وهو من أكسبها شهرتها وجعلها فنا أدبيا، فهو "مبتكر فن المقامات في الأدب العربي... وقد عمد البديع إلى أقوال المكدين فصاغ بها صورًا قصارًا من حياة الأدباء السيارين، حافلة بالحركة التمثيلية، التي تدور فيها المحاورة والمساجلة بين شخصين، سمى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافثان السحر، في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين"[6] ومقامات الهمذاني "هي الغاية من البلاغة وعلو الرتبة في الصنعة"[7].

ولم يفتأ ينتشر فن المقامة ويقلده من جاء بعد الهمذاني من أمثال: أبي الإصبع عبد العزيز العراقي (ت القرن 4هـ) وله مقامات في الكيمياء، وابن نباتة السعدي (ت405هـ) وله عدة مقامات، وأبو الحسن المختار بن بطلان (ت460هـ) وله مقامات في مسألة طبية، وأبو النصر عبد الله بن محمد بن ناقيا (ت485هـ) وله تسع مقامات، وأبو حامد الغزالي (ت505هـ) وله مقامات صوفية، لكن أشهر من تأثر به ودفع بفن المقامات إلى الشهرة أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت516هـ) وقد كتب خمسين مقامة، ونوَّه إلى الهمذاني في مقدمته[8]، قال

---

[1] عباس، حسن، نشأة المقامة في الأدب العربي، ص46. نقله عن بديع الزمان ص34.

[2] إبراهيم، عبد الله، النثر العربي القديم، ص222.

[3] موجز دائرة المعارف الإسلامية، ص9574.

[4] الشريشي، أبو العباس بن عبد المؤمن القيسي، شرح مقامات الحريري، ص24.

[5] عبد العزيز، عبد المجيد، القصة العربية الحديثة القصيرة، ص37-39.

[6] بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج2، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط4، ص113.

[7] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص110.

[8] ينظر الجراح، هاني عباس، المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية، ص13-14. بديع الزمان الهمذاني أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني، ولد في 13 جمادى الثانية سنة 358هـ في همذان، وأدبه فيها أبو الحسين أحمد بن فارس النحوي، وقدم سنة 380هـ إلى جرجان، وانتقل إلى نيسابور سنة 384هـ، وحظي عند أبي سعيد بن محمد بن منصور الدهقان، تناظر مع الخوارزمي وفاق عليه في مناظرته، ثم

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

الحريري: "ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان... وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكرة لا تتعرف"[1] وجاءت مقاماته "نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الحظ، وأقبل عليها الخاص والعام، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة"[2].

و"لقد كان بديع الزمان أول من أطلق اسم المقامات على عمل أدبي من إنشائه، وقد لاقت مقاماته قبولًا في نفوس معاصريه، حتى أنّ أبا بكر الخوارزمي حين أراد الانتقاص من قدره لم يملك إلا أن يقول إنه لا يحسن سواها وأنه يقف عند منتهاها"[3] وقد كانت مقامات البديع "بالنسبة للجميع مجموع الأدب، وحصيلة كل الكتب السابقة، ولم يكن تعظيمه خارج اللغة العربية بأقل تألّقًا، ترجم واحتفي به في السريانية والفارسية والعبرية"[4].

ويبدو أنّ حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المظفر الأزدي من الحكايات التي تقترب في محتواها من المقامات وفي شخصية بطلها، فقد وصفت مشاهد من العبث والمجون في بيئة بغداد، وبدت شخصية أبي القاسم متلوّنة خادعة متقلبة تقلّب بطل المقامات عند البديع، وأنّ بعض الأقوال الشفاهية الموجودة في المقامة الدينارية عند البديع قد حذت حذو بعض أقوال أبي القاسم. فانظر إليه يقول: "يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب... يا لقاء الكابوس في وقت السحر، خراجا بلا غلّة"[5][6] وانظر إلى قول أبي الفتح: "يا برد العجوز، يا كريمة تموز، يا وسخ الكوز، يا درهمًا لا يجوز، يا حديث المغنين، يا سنة البوس، يا كوكب النحوس"[7].

وقد اطَّلع البديع على شعر الكدية عند أبي دلف الخزرجي شاعر بني ساسان الأول وابن سكّرة وابن الحجاج[8]، وربما أفاد منهم في تشكيل بعض نصوص مقاماته، ومع فضل البديع في إنشاء فن المقامة فإن للحريري الفضل في تجذير هذا الفن وتطويره إذ يقال: "إنّ الحريري ينظر إلى نفسه بطرف خفي، يتخفى وراء مدح البديع والاعتراف بفضل سبقه وتقدمه، ثم راح يتكشف السرّ في القرن السادس والسابع، حتى إنك لتدهش حين تجد صاحب مقامات كابن الصيقل الجزري لا يشعر بضرورة ذكر فضل البديع، إذ الفضل كل الفضل كان من نصيب الحريري ولا أحد سواه معه"[9].

طاف خراسان وسجستان، ونزل مكرما عند الأمير خلف بن أحمد، استقر في غزنة، وتوفي بهراة سنة 398هـ. ينظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج2، ص112.

[1] الحريري، مقامات الحريري، دار صادر، بيروت، 1980م، ص11.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص110.

[3] عباس، حسن، نشأة المقامة في الأدب العربي، ص25.

[4] رزق، شريف، الأشكال النثر شعرية في الأدب العربي، ص91.

[5] وردت هذه الجمل في رسائل أبي بكر الخوارزمي (ت383هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1970م، ص244-245، إذ يقول: "يا يوم الأربعاء في آخر صفر، ويا لقاء الكابوس في وقت السحر، يا خراجا بلا غلة، ودواء بلا علة، يا أثقل من المكتب على الصبيان، ومن كراء الدار على الصبيان"

[6] الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص120.

[7] الهمذاني، المقامات، ص376.

[8] جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر القديم، 2007م، ص276.

[9] كاظم، نادر، المقامات والتلقي، ص86.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

من أهداف المقامات البديعية

يهدف كاتب المقامة إلى إظهار البراعة اللغوية، والبراعة في الوصف فحسب، ومن ذلك المقامة المغزلية والأسدية، ومما ورد في وصف المغزل "برأسه دوار، بوسطه زُنّار، وفلك دوار، رخيم الصوت إن صرّ، سريع الكرّ إن فرّ"[1]، أو تمكين الطلبة من امتلاك أدوات صنعة الكتابة المسجوعة، ثم نقد الثقافة القديمة ويبدو ذلك في المقامة البغدادية حين قدم البديع نفسه على أنه يملك ناصيتي الفنين الشعر والنثر في حين كان الجاحظ ناثرًا مترسّلًا.

ويمارس كاتب المقامة النقد الاجتماعي "فهي وسيلة مناسبة لكشف تخبط السلطة، وتعد إطارا مناسبا تاريخيا وحضاريا لنقد الواقع وما ينطوي عليه من مفاسد"[2] "إذ يمكن وصف مقامات بديع الزمان بأنّها شريط سينمائيّ فوضويّ لشتى مظاهر الفساد والإفساد وسجل حافل للحياة ذات الوجهين في الخبث والرياء والنفاق تحت بردة التقى والزهد والورع"[3]، ويستخدم الوعظ الديني ويغلفه أحيانا بثوب من التهكم والسخرية ويبرز ذلك في المقامة المارستانية والوعظية، ففي المارستانية يقول على لسان مجنون: "ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة؟ ويلك هلا تخيرت لنطفك، ونظرت لعقبك"[4] وفي المقامة الوعظية يقول على لسان واعظ: "أيها الناس إنكم لم تتركوا سدًى، وإن مع اليوم غدًا، وإنكم واردو هوة، فأعدوا لها ما استطعتم من قوة، وإن بعد المعاش معادًا، فأعدوا له زادًا"[5].

ولا تبتعد مقاصد كاتب المقامة عن التكسب فقد ألَّف بديع الزمان ستًّا[6] من المقامات المدحية لخلف بن أحمد أمير سجستان طمعا في نواله، ولقد ختم هذه المقامات بشعر مدحيٍّ يثني على أمير سجستان، ومنه قوله في المقامة الناجمية:

"سجستان أيّها الراحلة وبحرا يؤمّ المنى ساحله
ستقصد أرجان إن زرتها بواحدة مائة كاملة
وفضل الأمير على ابن العميد كفضل قريش على باهلة"[7].

---

[1] الهمذاني، المقامات، ص272.

[2] السراحنة، فاطمة، البنية الحكائية في كتاب (النمر والثعلب) لسهل بن هارون، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 45، عدد 4، ملحق 1، 2018م، ص102.

[3] جامعة القدس المفتوحة، فنون النثر العربي القديم، ص279، نقلها عن الكك ، ص71.

[4] الهمذاني، المقامات، ص197.

[5] المصدر السابق: ص209.

[6] ينظر الهمذاني، المقامات، الناجمية، والخلفية، والنيسابورية، والملوكية، والسارية، والتميمية.

[7] الهمذاني، المقامات، ص344.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

المقامات وتناسل البنى

من أشهر المقامات مقامات الحريري[1] وقد ألفها على هدي مقامات بديع الزمان الهمذاني وجعلها خمسين مقامة وجعل راويته الحارث بن همام البصري وبطل مقاماته أبا زيد السروجي، قال: "وأنشأت... خمسين مقامة، تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوي اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبّرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية، مما أملي جميعه على لسان أبي زيد السروجي، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري"[2]. وبدأ مقاماته بالمقامة الصنعانية وختمها بالمقامة البصرية. ومما قاله في المقامة البصرية "حكى الحارث بن همام، قال: شعرت في بعض الأيام همًّا برّح به استعاره، ولا على شعاره، وكنت سمعت غشيان مجالس الذكر يسروا غواشي الفكر، فلم أرَ لإطفاء ما بي من الجمرة إلا قصد الجامع بالبصرة... فلما وطئت حصاه، واستشرفت أقصاه، تراءى لي ذو أطمار بالية، فوق صخرة عالية، وقد عصبت به عصب لا يحصى عديدهم، ولا ينادى وليدهم، فابتدرت قصده... ولم أزل أتنقل في المراكز، وأغطي للاكز والواكز، إلى أن جلست تجاهه، بحيث أمنت اشتباهه، فإذا هو شيخنا السروجي لا ريب فيه، ولا لبس يخفيه"[3].

ويقال بأنّ المقامة الحرامية هي أول مقامة أنشأها في البصرة أو بغداد "وقد أشار عليه شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه بها، وقيل أمره صاحب البصرة ووالياها"[4]، فابتدأت في إنشاء المقامة الحرامية... فلما فرغت منها أقرأتها جماعة من الأعيان فاستحسنوها غاية الإحسان، وأنهوا ذلك إلى وزير السلطان، واقترحوا عليّ أخوتها والله المستعان"[5].

ويكاد ينحصر سبب تأليفه للمقامات بالغاية التعليمية إلى جانب الترفيه والتسلية، ويبدو أنّ طبيعة حياة الحريري التي تتميز بالهدوء والاستقرار وسعة العيش ووجود نموذج فني من مقامات بديع الزمان يحتذيه قد انعكست على طريقة سبكه مقاماته وغاياتها؛ لذلك طغى الجانب البديعي الاستعراضي على مقاماته بشكل فاق فيه ما يوجد عند الهمذاني[6].

وكان لاهتمام الحريري بأبنية المقامات اللغوية وشحنها بالعديد من الألغاز والأحاجي والموضوعات ذات الطابع اللغوي والنحوي، واحتفاله بجملة من ألوان البديع مزية جعلت الشرّاح يهتمون بتفسير عويص ألفاظها وأحاجيها وألغازها. ويبدو أنّ هناك مجموعة من أوجه التلاقي بين مقامات البديع والحريري، منها: قيامهما على راوٍ وبطل، والاحتفال بالكدية موضوعًا في أغلب المقامات، كما أنّ راوي مقاماتهما مهتم بكشف قناع البطل وكشف حيله.

---

[1] والحريري أبو محمد القاسم بن علي الحريري، عربي النسب ولد في البصرة 446هـ، وتعلم فيها العلوم الدينية واللغوية والنحو، برع في تلك العلوم واتصل بالخلفاء في بغداد وتقلد مناصب عدة فيها، وكان الحريري من أعيان عصره، وممن يعيشون عيشة رغدة، ألف مجموعة من الكتب منها: "درة الغواص في أوهام الخواص" و"وملحة الإعراب في النحو" وله ديوان رسائل والمقامات التي سميت باسمه، توفي في البصرة سنة 515هـ.

[2] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج1، ص30، "وكان أبو زيد السروجي شحادا بليغا، ومكديا فصيحا".

[3] المصدر السابق، ج1، ص334.

[4] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج1، ص27.

[5] المصدر السابق، ج1، ص26-27.

[6] فنون النثر العربي القديم، ص286.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

واهتمامهما بمجموعة من الأمكنة المشتركة التي برزت في عناوين عدد من المقامات كالمقامة البصرية، والحلوانية، والكوفية، والبغدادية، والشيرازية إلى جانب التلاقي في عنوانين آخرين وهما الساسانية والشعرية. واتفق الاثنان على الإعلاء من الأسلوب المسجع الجديد، فقد رأى الهمذاني في نفسه تفوقًا على الجاحظ في الأسلوب لجمعه بين الشعر والنثر واحتفاله بألوان البلاغة، كما فعل الحريري الفعل نفسه حين فضل على لسان بطل مقامته المراغية الأسلوب الجديد على أسلوب القدماء، وذلك في قوله: "فأجمع من حضر من فرسان اليراعة... أنّ المفلق من كتّاب هذا الأوان... كالعيال على الأوائل ولو ملك فصاحة سحبان وائل" فردّ على ذلك السروجي قال: "لقد جئتم شيئًا إدًّا، وجرتم عن القصد جدًّا... أنستم يا جهابذة النقد، وموابذة الحل والعقد، ما أبرزته طوارف القرائح، وبرز فيه الجذع على القارح من العبارات المهذبة والاستعارات المستعذبة، والرسائل الموشّحة، والأساجيع المستملحة، وهل للقدماء إذا أنعم النظر من حضر غير المعاني المطروقة الموارد"[1].

وتلتقي المقامات البديعية مع الحريرية في أنّ إحدى غايتهما التعليم، لكنّ هذه الغاية عند الحريري أوضح والنص عليها أظهر، فقد ورد في بعض مقامته شرحا لمادة نحوية على لسان بطلها السروجي، وذلك في المقامة النحوية:

فإنْ وصلًا ألذُّ بهِ فوصلٌ *** وإنْ صَرْمًا فصرمٌ كالطّلاقِ

قال: فاستفهمنا العابث بالمثاني، لم نصب الوصل الأول، ورفع الثاني؟ فأقسم بتربة أبويه، لقد نطق بما اختار سيبويه، فتشبعت حينئذ آراء الجمع، في تجويز النصب والرفع... قال يا قوم أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليله، إنه ليجوز رفع الوصلين ونصبهما، والمغايرة في الإعراب بينهما، وذلك بحسب الإضمار، وتقدير المحذوف في هذا المضمار"[2].

ويتَّفق الاثنان في إبراز بعض القيم الاجتماعية، لكن احتفال الهمذاني بقيم المجتمع ونقده أبين، ومع ذلك فقد كرر الحريري وصف بطل مقاماته السروجي برث الثياب وازدرائه لذلك، ومن ذلك احتجاج السروجي في المقامة الفراتية حين قال: "أما بعد فأن سحقتم حقي، لأجل سحقي، وكسفتم بالي، لإخلاق سربالي، فما أراكم إلا بالعين السخينة، ولا لكم منّي إلا صحبة السفينة"[3].

كما قامت مقامات كل من البديع والحريري على الكدية، فقد أوصى السروجي ابنه امتهان الكدية أداة لتحقيق الرزق، مذكرا بفعل خالد بن يزيد في البخلاء، وفي ذلك نقد لأبنية المجتمع العباسي، الذي يضطر شخصية متميزة بالفصاحة والقدرة العقلية إلى الاحتيال، وهذا يذكرني باضطرار التوحيدي إلى استعطاف أبي الوفاء المهندس إلى حد الاستجداء ليصله به طمعا في الحصول على أداة رزق تنتشله من براثن الفقر والعوز، ومما قاله التوحيدي: "خلصني أيّها الرجل من التكفف، أنقذني من لبس الفقر أطلقني من قيد الضر، اشترني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني في فنون المدح، واكفني مؤونة الغداء والعشاء، إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص

[1] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج1، ص227-228.

[2] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج3، ص201، 210.

[3] المصدر السابق، ج3، ص65.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

المرقع... أذلّني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على بابٍ باب... ذكّر الوزير أمري، وكرّر على أذنه ذكري... وابعثه على الإحسان إلي"[1].

أمّا أوجه الاختلاف فإنّ الكدية في مقامات الهمذاني تشكّل قمة المأساة للبطل، لكنّها عند الحريري تعكس مهارة البطل ودهاءه ومكره، ذلك أنّ الحريري مقلّد لا مبتدع، وقد اهتمّ الحريري بالألغاز والأحاجي بقدر يفوق الهمذاني بكثير، وتوسّع الحريري في الجوانب البلاغية والصنعة الفنية.

لقد بالغ الحريري في استخدام الحيل اللفظية البديعية، فرصف بعض جمله بحيث تأتي كلمة معجمة وأخرى غير معجمة، كما بنى جملا تقرأ بعكس حروفها فتؤدي المعنى نفسه، وهو ما سماه البلاغيون ما لم يستحل بالانعكاس، واستخدم هذه الحيل اللفظية في المقامة المغربية. ومن أمثلة ما قاله: "إلى أن جلنا فيما لا يستحيل بالانعكاس، كقولك: ساكب كاس... وقال: لم أخامل، وقال ميامنه: كبر رجاء أجر ربك، وقال الذي يليه: من يرب إذا برّ ينم، وقال آخر: سكت كلّ من نمّلك تكس"[2].

ولقد اشتهرت مقامات الحريري وتصدى لها مجموعة من الشراح كالمطرزي، والعكبري، والشريشي، وابن ظفر، ولعل عناية الشراح بها يعود إلى براعة الحريري في استخدام أسلوب مسبوك بشكل فني أخّاذ، واهتمام الحريري بالمسائل الفقهية والنحوية واللغوية، والحاجة إلى تفسير مجموعة من مفرداته، وأسماء الأعلام المبثوثة في ثنايا نصّه، كما كان لأسلوبه الساخر كذلك دور في قبول الشارحين والمقلدين.

وتعدّ مقامات الهمذاني ومقامات الحريري من أشهر المقامات العربية وأرقاها، وقد ألّفت العديد من المقامات عبر القرون منذ خط الهمذاني مقاماته، ومنها مقامتا أبي النصر السعدي (ت405هـ)، وأبي القاسم عبدالله بن ناقيا (ت485هـ) وغيرهما. وأتحدث بإيجاز عن أربع مقامات قلّدت الهمذاني والحريري، ومنها: مقامات ابن ناقيا، والمقامات اللزومية للسرقسطي، ومقامات الجزري، ومقامات ابن الجوزي، ومقامات الساق على الساق فيما هو الفارياق لابن فارس الشدياق.

مقامات ابن ناقيا: هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا المعروف بالبندار، (ت475هـ) في بغداد، وهو شاعر بارع وكاتب مترسل ولغوي عارف، ألّف العديد من الكتب منها أغاني المحدثين، والجمان في تشبيهات القرآن، ومختصر لكتاب الأغاني، وشرح لكتاب الوسيط، وديوان شعر وديوان رسائل، ومقامات.

يُتَّهم الرجل بالفساد في الاعتقاد والميل نحو اللهو والمجون، فبعض مقاماته تصف مجالس الشراب والمجون ومنها المقامة الخمرية، احتذى في تأليفه لمقاماته حذو الهمذاني، فتموضع حول الكدية، ومال إلى إزجاء الصنعة في أسلوبه، واستخدم الحوار والمناظرة أحيانا في الحديث عن غريب معتقده في البعث، وقد أنشأ عشر مقامات، قال فيها: "هذه حكايات أحسنا العبارة فيها، وهذبنا ألفاظها ومعانيها وجلوناها في حلى البلاغة على سامعها وراويها، وقد سلك بعض المتقدمين هذا المذهب مثلها، رياضة للخاطر، وتحديا للقريحة، غير نائل جفيرها للمرمى، ولا رائد لسوامها عند حد المرعى"[3].

---

[1] التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج3، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، ص227-228.

[2] الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج2، ص205، 209.

[3] ابن ناقيا، المقامات، تحقيق: حسن عباس، الدار الأندلسية، مصر، 1988م، ص63.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وقد شحن مقاماته بفيض من الأمثال، ومزيد من بديع الألفاظ، وبرز فيها الغاية التعليمية والترفيهية والظرف، وقد استخدم بطل مقاماته اليشكري لبث مبتغاه وأفكاره، واستند إلى العديد من الرواة، دون أن يخصص راويا واحدا كالهمذاني، وصور بطل روايته اليشكري بصورة رجل نحيل بخيل يريد أن يأخذ كلّ ما في الدنيا دون أن يعطي منها شيئا، وهو شخص متقلب قادر على التخفّي والتحول من حال إلى حال، فساعة يكون لصا فاتكا ومكديا بارعا، وأخرى واعظا مميزا تدمع لقوله العيون. يستخدم الحوار والجدل والحجاج العقلي أحيانا، ويزجي اللفظ المسجّع أحيانا أخرى.

استفاد ابن ناقيا من الهمذاني في صنع مقاماته، إذ يصور حالات قطاع واسع من المجتمع العباسي، فيكشف المستور، ويفضح اضطراب أبنية المجتمع، والعيوب والآفات التي تنخر جسده، متخذًا الكدية أداة لبيان عيوب المجتمع، لكنّه يمعن في الجانب الفني في بناء مقاماته أكثر من اهتمامه بالجانب الموضوعي مخالفا في ذلك البديع، ومتخذًا منهجًا وسطًا بين الهمذاني والحريري، ففي مقاماته العشر تبرز شاعريته وتسعفه في الوصول إلى كثير مما أراد، كما يدعمه مخزونه المعرفي اللغوي والبلاغي الواسع في اصطناع –في غير قليل من المواضع– لغة عالية متميزة في سرده بوجه خاص[1]. وقد جعل من آي القرآن أداة لبناء نصه، فترى الآيات مبثوثة في كثير من فقرات مقاماته.

بدأ مقاماته بمقامة سماها الضبّية، جعل مكانها البادية، ثم ثنى بمقامة سماها النبّاشة، جعل راويها أحد الصعاليك الفتاك، وجعل بطلها اليشكري الذي يتقن نبش القبور، وحين يخاف افتضاح أمره يتخفى بثوب الواعظ المتمكن. ومما قاله الراوي في وصف فعله: "وتتبعته على الأثر، وإذا به قد اقتحم منازل البلى، وسكان الثرى لا يرقب فيهم إلًّا ولا ذمة، ولا يرحم لهم رمّة، فجعل يطأ الأجداث... حتى وقع على ضالته، وأدرك دفين ليلته، فسلب أكفانه، وحطم إرانه، وهال عليه التراب والأحجار، وولى حتى دخل الجدار، فإذا بحركة العسس والطواف، فعدل إلى مئذنة فأناف، ثم رفع عقيرته فذكر وخوف، ووعظ واستعطف، فسمعت بكاء القوم وكأني أرى ذلك في النوم"[2].

المقامات اللزومية: وهي مقامات ألفها أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي (ت538هـ)، وهو كاتب أندلسي وقد أنشأها في قرطبة، وجعلها خمسين مقامة مقتفيا بها طريقة الهمذاني والحريري، جاعلًا بطلها شخصا يسمى أبو الحبيب السدوسي، وراوياها المنذر بن حُمام، ويروي عنه السائب بن تَمّام، وتحدث فيها عن تنقل بطل مقاماته وراويها وأسفارهم في الأماكن المشرقية، وتخير لمقاماته أسماء مناطق مشرقية، وكان من المنتظر أن يتخيَّر أماكن المغرب الأندلسية، ويتميز السرقسطي تميزًا واضحًا بمقاماته الخمسين، فهي تتجمع فيها الاتجاهات الثلاثة: المحاكاة والتجميد والتجاوز[3].

جعل شخصية بطله السدوسي مشابهة لشخصيتي السروجي والإسكندري، فبدا عالمًا متشرّبًا الفصاحة والبلاغة، ممتلكا أدوات اللغة، يرتدي ثوب الوعظ أحيانا، وثوب العلم أحيانا أخرى، مستخدما ذكاءه في الكدية وفنونها، فغدا بارعا عارفا فيها، ومما أورده في وصف كديته وشكواه "فأصارني طريدا، وغادرني شريدا، أعتام الكرام وأتسوغ الحلال والحرام، وربما سففت التراب، ووردت الآل والسراب، وأوي إلى زغب الحواصل كالأسنة والمناصل،

---

[1] المصدر السابق: ص47.

[2] ابن ناقيا، المقامات، ص71.

[3] طرطوشة، محمود، فن المقامة في الأندلس، ص169.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

يتطلعون إلي تطلع الغريم، ويستعطفوني استعطافي للكريم... قال: فكل بادر إليه بديناره، وإطفاء لهيب ناره"[1] "وقد كانت الكدية واقعا اجتماعيا في الأندلس المجزأة ولم تستقطب اهتمام أصحاب المقامات"[2].

وقد أنشأ مقاماته معتمدا أسلوب الصنعة اللفظية والإكثار من السجع والإتيان بلزوم ما لا يلزم، متبعا أصول المقامة عند الهمذاني والحريري، وقد جعل بطله وراوي مقاماته يشتركان أحيانا في تحريك أحداث المقامة وصناعة حكاياتها، وجعل بطله نموذجا للشيخ المحتال، ونص على احتياله في العديد من جمل المقامات ومن ذلك ما قاله في المقامة البحرية: "فقلت الشيخ والله أبو حبيب، لقد طال طيلك، وطاوعتك مكايدك وحيلك"[3] وكان الراوي يشاركه أحيانا في أحداث حكاياته فيقع في حبائل مكائده، ومن ذلك ما ورد في المقامة الثامنة "قال الراوي: فبت تلك الليلة أرقبه، وأداوله العبادة وأعاقبه، وقد انثالت عليه التحف والهبات، وجن الليل فحال بيني وبينه السبات، فلما أصبح وجدتني مقيدًا بحبال، مزملًا بكساء بال... قال: فعلمت أنّه كيد سدوسي ورأي عموسي، لا يهديه هاد"[4].

وواكب الحريري في إعلان بطل مقاماته التوبة عن تقلباته وذنوبه وأوبته إلى الله ثم موته، وأشرك الراوي معه، فقال: "ثم أخذ في صلاته وسبحه، وتركني وتركته لمعتبقه ومصطحبه، فصرت عنه منصرفا، ولم أزل لخبره معترفا إلى أن بلغني في صدر الطريق نعيه ووفاته"[5].

وتتميز المقامات اللزومية بأن "العنصر البحري في هذا الكتاب ركنا جديدا مهما، فأحداث العديد من المقامات تقع في الموانئ وفي عرض البحار، ويشبه اضطرابها ومفاجآتها ما في حكايات البحارة "ألف ليلة وليلة" وإن بعض الحركات القصصية في الكتابين متماثلة مثل الحيوان البحري الذي يظنه البحارة جزيرة، والطائر البحري الذي يظنونه سحابا"[6].

المقامات الزينية: وقد ألفها معد بن نصر الله بن رجب البغدادي، المشهور بابن الصيقل الجزري، وقد كتبها في القرن السابع الهجري، وفرغ من كتابتها 672هـ، وسميت بالزينية نسبة لابن الجزري زين الدين، وقد قدمها إلى الجويني صاحب الديوان في بغداد في عصره، وكان عدد مقاماته خمسين مقامة، وأعدّها لطلابه سنة 676هـ، ويوصف الجزري بأنّه أديب بارع ونحوي فقيه لغوي مفت متميز [7].

أنشأ الجزري مقاماته على هدي من مقامات الحريري، فقد جعل لها بطلًا سماه أبا نصر المصري، واختار راويًا لمقاماته سماه القاسم بن جريال، وقد اهتم في مقاماته بأمور النحو والأمثال العربية وبعض المسائل الطبية، ومصطلحات في الرياضيات والفلك والفقه، و كان بطل مقاماته كثير التنقل من مدينة إلى مدينة ومن فئة اجتماعية إلى أخرى، ومن ناد مليء بالعلماء إلى ناد آخر مملوء بالرعاع، ومن عيادة طبية إلى رباط صوفي، فهو كثير التلون على عادة بطل المقامات عند الهمذاني والحريري.

---

[1] السرقسطي، أبو الطاهر محمد بن يوسف، المقامات اللزومية، تحقيق: حسن الواركلي، جدارا للكتاب وعالم الكتب الحديث، عمان، واربد، ط2، 2006م، ص43.

[2] طرطوشة، محمود، فن المقامة في الأندلس، ص161.

[3] السرقسطي، المقامات اللزومية، ص71.

[4] السرقسطي، المقامات اللزومية، ص81.

[5] المصدر السابق: ص465.

[6] طرطوشة، محمود، فن المقامة في الأندلس، ص159.

[7] الجزري، معد بن نصر الله بن رجب البغدادي، المقامات الزينية، تحقيق: عباس مصطفى الصالحي، دار المسيرة، عمان، 1980م، ص42.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

وقد تحدث في مقامته الواحدة عن مجموعة من الأحداث التي وقعت له، وسمى المقامة باسم المكان الذي وقعت فيه كالمقامة البغدادية والمقامة الطوسية واللاذقية والقدسية والرهاوية والنيسابورية والسنجارية، وسمى بعضها بالمقامة الصوفية والمقامة التجنيسية والحصفكية الرقطاء والضبطاء.

وأكثر ابن الجزري من الزخارف اللفظية في مقاماته، وأغرق في الصنعة دون اهتمام بالمعاني، ومن أمثلة زخرفته: "اعرورقت سنام العيجور، وقريب إهاب البحر المسجور، ولم أزل آخذ بأقدام الفرار إلى مواطن القراد، وأجد مع مكابرة البكار، حر ماراة الافتكار إلى أن سرطت سراط واسط، وأنا ما بين قابض من القلق وباسط"[1] كما ضمّن نص مقاماته شعرا وفيرا أكثره من نظمه، وبلغ عدد الأبيات الشعرية في مقاماته 693 بيتا ومخمسا في عشرين مصراعا[2].

وقد تناول الجزري في مقاماته موضوعات عدة منها الكدية والألغاز والأحاجي، والوعظ والتعليم، كما اهتم بالحيل البلاغية السائدة في عصره مقلدا للحريري في مقامته القهقرية، فحرر رسالة قهقرية على لسان بطل مقاماته بحيث يمكن قراءتها من الأول بمعنى ومن الآخر بمعنى.

تأثير المقامات في الآداب الأخرى

أثَّرت المقامات في العديد من الآداب الأخرى كالأدب الفارسي والأدب العبري والأدب الإسباني والأدب الإيطالي والأدب الهندي، وقد عرفت العبرية فن المقامات على يد سليمان بن صقبل، فقد ألَّف مقامة واحدة على نمط المقامات العربية، وقد عُثِر على هذه المقامة ضمن مخطوطات الجينزاه، إذ تعدّ النموذج الأول للمقامة العبرية في الأدب العبري[3] وقد ترجم يهودا الحريزي (ت602هـ) كامل مقامات الحريري إلى العبرية، ونالت تلك الترجمة نجاحًا واسعًا في أوساط القراء العبريين، وهذا يؤشر على فهم الحريزي العميق للثقافة العربية واللغة العبرية[4]، وألّف مقامات باللغة العبرية كذلك في سفر تحكموني (كتاب الحكمة)[5] وجعلها في خمسين فصل، وركز المؤلف الأندلسي حكاياته على راوٍ وبطل مثل الهمذاني والحريري والسرقسطي، الأول سماه هيمان ها أزراخي، وهو صوت المؤلف، والثاني رجل فقير فصيح يسمى "ها كيني" [6].

---

[1] الجزري، المقامات الزينية، ص33.

[2] المصدر السابق: ص63.

[3] الشناوي، وفاء محمود عبد الجليل، الصورة المرفوضة للمرأة في المقامة العبرية، مجلة رسالة المشرق، مجلد 27، جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، 2011م، ص172.

[4] المصدر السابق: ص172.

[5] طرطوشة، محمود، فن المقامة في الأندلس، حوليات الجامعة التونسية، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، عدد 28، 1988م، ص146.

[6] المصدر السابق: ص163.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

"ومن الواضح أنّ الحريزي في تناوله لشخصياته في المقامات وخاصة شخصية الطبيب قد اطَّلع على مقامات السرقسطي وذلك للتقارب الزمني والمكاني بينهما، واتَّخذ من مقامة السرقسطي الطب والعرافة نموذجا يحتذي به، واصطنع في مقامتيه طريقته الساخرة"[1].

ولا شك أن المقامات العربية هي التي دفعت الحريزي لتأليف مقاماته بالعبرية، فقد ولدت المقامات العربية الغيرة لدى الكتاب اليهود كي يؤلفوا مقامات باللغة العبرية، فابن صقبل حاكى المقامات العربية في أسلوب المقامة وطبيعة موضوعها، وقيل وليس من شك في أنَّ ابن صقبل قد استخدم في مقاماته قصة عربية وإن لم يفلح المحققون في العثور على أصل هذه القصة[2].

وقد تخطى تأثير مقامات الحريزي العبرية نطاق الأدب العبري إلى الأدب الإسباني، وكان لمقاماته أثرها الواضح على القصة البيركاسيكية الأولى لحياة لثري ودي تورمس، ومن المحتمل أن يكون الكاتب الإسباني رويج قد تأثر في قصصه بمقامات الحريزي العبرية[3].

ولقد لاحظ (خوان فرنت) في كتابه (الأدب العربي) بعض أوجه الشبه بين هذه المقامات ومقامات الهمذاني من جهة وبينهما وبين قصص الشطار الإسبانية، ويبدو من كلامه أنّ الحريزي كان فعلا وسطا بين الأدب العربي والأدب الإسباني فموضوع الحيلة التي استخدمها عيسى بن هشام لمخادعة السوادي في المقامة البغدادية نجدها في مقامة الحريزي الثانية عشرة، كما تجدها في كتاب "حياة ماركوس دي أوبريفون"، كما أعاد الحريزي طرح العديد من الموضوعات التي طرحها الهمذاني والحريري[4] وهناك مؤلف أندلسي يهودي آخر تأثر بالمقامات العربية واسمه يعقوب ألعازر من طليطلة وكان معاصرا للحريري، وله عشر مقامات اسمها "مسالم"، وهي حكايات تجمع بين السجع والشعر يرويها راو خيالي، وجُلّ هذه المقامات يدور حول الحب الآثم الذي ينتهي في أغلب الأحيان إما بتوبة أو بالعقاب، وقد حاول يعقوب ألعازر تقليد الحريري في تفننه في الأشكال والصور البديعية[5].

الخاتمة

تُعدّ المقامات من الأجناس السردية العربية القديمة المعبرة عن التجاذبات الاجتماعية والثقافية التي تسري في جسد المجتمع العربي القديم وتعكس وجع الفئات المهمّشة فيه، وسعيها نحو تشكيل ثقافة شعبية تنافس الثقافة السائدة للسلطة وتنفذ من الفراغات التي تهملها السلطة لتتشكل عبر خطابات شعبية تعنى بالمهمشين من الكداة والعيارين والشطار والطفيليين وغيرهم ممن يتخذون اللغة وأبنيتها وبلاغة الحكي للوصول إلى مبتغاهم.

طوّف البحث في منظومة سردية عربية قديمة لاقت اهتماما واسعا في السنوات الأخيرة عني بها الباحثون من زوايا متعددة، وانتبه البحث إلى تقديم هذا الجنس للطالب الجامعي ليفهم طبيعته وأسس تكوينه وتمدداته عبر

---

[1] إبراهيم، إبراهيم سالم، صورة الطبيب في مقامات تحكموني ليهودا الحريزي، دراسة تحليلية، مجلة رسالة المشرق، مجلد 32، عدد1-2 جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، 2017م، ص33.

[2] أحمد، هيثم محمود إبراهيم، الاحتيال في مقامات الحريزي العبرية، مصادره وأشكاله وأهدافه، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم اللغات الشرقية، جامعة جنوب الوادي، قنا، 2011م، ص85.

[3] المصدر السابق: ص41.

[4] طرطوشة، محمود، فن المقامة في الأندلس، ص164.

[5] المصدر السابق: ص165.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

الخطاب النثري العربي القديم، وليؤشر إلى أنّ هذا الجنس يمثل وجدان الشعوب وخفايا تكويناتها ووجعها الذي لم يعبأ بنقله الخطاب الرسمي القديم. ولينبّه الباحثين إلى النبش في هذا الجنس وما يشاكله من أجناس، وليخرجوه للعلن خطوة في طريق الإعلاء من شأن الثقافة الشعبية ووضعها بموازاة ثقافة السلطة المعبّر عنها بالشعر والنثر الديني قديما، والمتحورة بأشكال نثرية متعددة في العصر الحديث.

ويوصي البحث باستخدام وسائط التواصل الاجتماعي للاهتمام بالأدب الشعبي وترويجه بوصفه خطوة نحو جعل الجيوب الشعبية المهمشة جزءا من صناعة العقل العربي الجديد.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم، إبراهيم سالم: صورة الطبيب في مقامات تحكموني ليهودا الحريزي، دراسة تحليلية، مجلة رسالة المشرق، مجلد 32، عدد 1–2، جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، 2017م.
- إبراهيم، عبدالله: النثر العربي القديم، النثر العربي القديم بحث في البنية السردية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2002م.
- أحمد، هيثم محمود إبراهيم: الاحتيال في مقامات الحريري العبرية، مصادره وأشكاله وأهدافه، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم اللغات الشرقية، جامعة جنوب الوادي، قنا، 2011م.
- الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر: حكاية أبي القاسم البغدادي، أعاد طبعه مكتبة المثنى، بغداد، عن طبعة هيدلبرج، 1902م.
- إسماث، نور الحائيلية بنت محمد، العنبر عبدالله نايف: التحليل النصّي في نماذج من مقامات الزمخشري في ضوء معيار الاتساق، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 45، عدد 1، 2018م.
- بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج2، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط4.
- البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، د.ت.
- التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج3، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، د.ت.
- ثعلب، أبو العباس: شرح شعر زهير ابن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة هارون الرشيد، دمشق، ط3، 2008م.
- الجاحظ: البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف، مصر، ط5.
- الجراح، هاني عباس: المقامات العربية وآثارها في الآداب العالمية، الرضوان للنشر، عمان، 2014م.
- الحريري: مقامات الحريري، دار صادر، بيروت، 1980.
- رزق، شريف: الأشكال النثر شعرية في الأدب العربي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2017م.
- زيدان، جورجي: تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م.
- السراحنة، فاطمة: البنية الحكائية في كتاب (النمر والثعلب) لسهل بن هارون، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 45، عدد 4، ملحق 1، 2018م، ص102.
- السرقسطي، أبو الطاهر محمد بن يوسف: المقامات اللزومية، تحقيق: حسن الواركلي، جدارا للكتاب وعالم الكتب الحديث، عمان وإربد، ط2، 2006م.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- الشريشي، أبو العباس بن عبد المؤمن القيسي: شرح مقامات الحريري، ج1، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، د.ت.
- الشناوي، وفاء محمود عبد الجليل: الصورة المرفوضة للمرأة في المقامة العبرية، مجلة رسالة المشرق، مجلد 27، جامعة القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، 2011م.
- طرطوشة، محمود: فن المقامة في الأندلس، حوليات الجامعة التونسية، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، عدد 28، 1988م.
- الجزري، معد بن نصر الله بن رجب البغداي: المقامات الزينية، تحقيق: عباس مصطفى الصالحي، دار المسيرة، عمان، 1980م.
- ابن ناقيا: المقامات، تحقيق: حسن عباس، الدار الأندلسية، مصر، 1988م.
- علواني، أحمد محمد: المروي عليه في الحكاية التراثية العربية، داراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 45، العدد 4، 2018.
- عباس، حسن: نشأة المقامة في الأدب العربي، دار المعارف، د.ت،
- عوض، يوسف نور: فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت، 1979م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري: عيون الأخبار، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج14، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1919م.
- كاظم، نادر: المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات بديع الزمان الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م،
- كليطو، عبد الفتاح: المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط2، 2001م.
- مؤلفون: فنون النثر العربي القديم، منشورات جامعة القدس، 2007م.
- الهمذاني، بديع الزمان: رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، مطبعة الجوائب، الاستانة، 1298هـ.
- الهمذاني، أحمد بن الحسن: المقامات، تحقيق: محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2005م.
- هوتسما، م.ت. وآخرون: موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحقيق: إبراهيم زكي خورشيد، وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط1، 1998م.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022